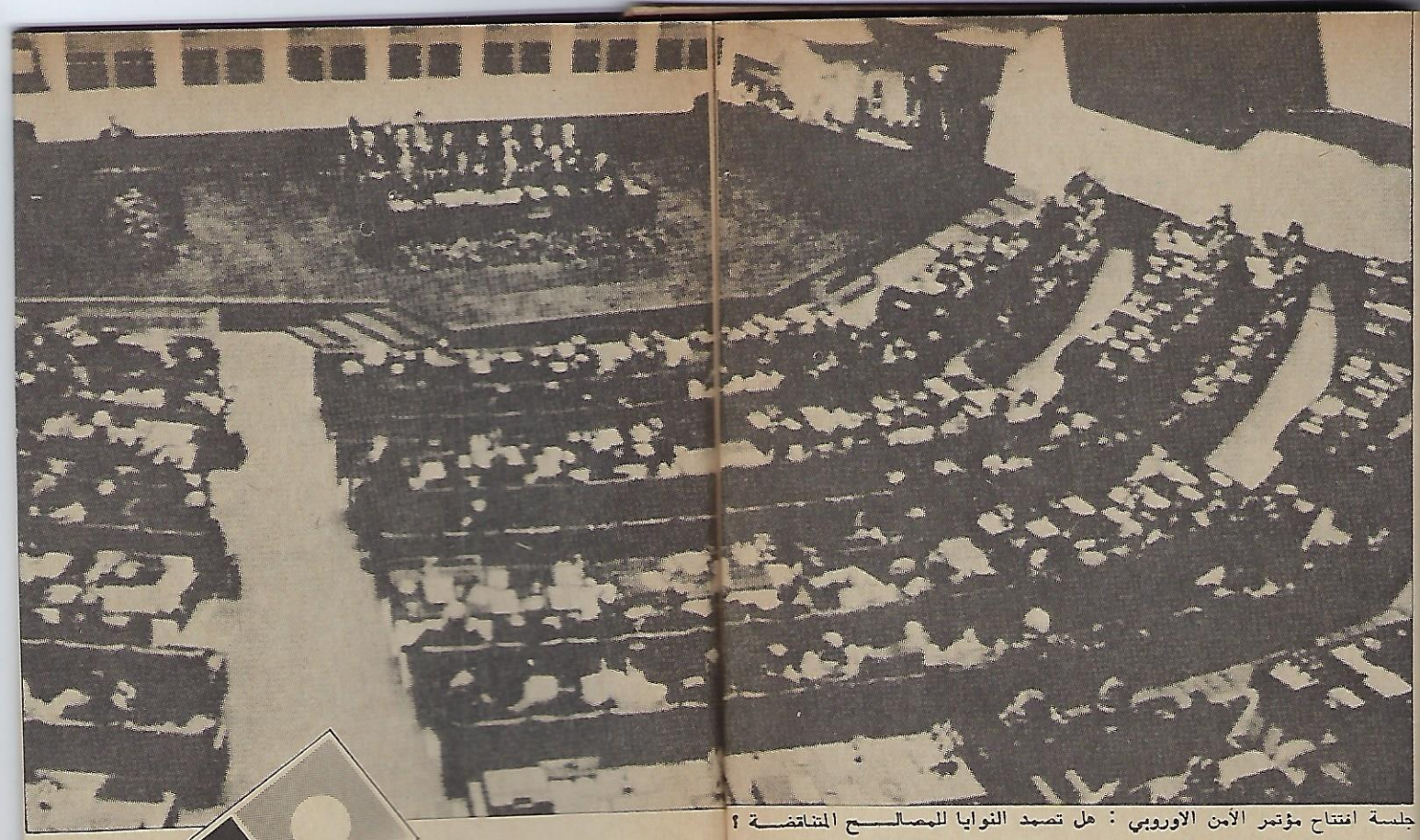

جلسة افتتاح مؤتمر الأمن الاوروبي : هل تصمد النوايا للمصالح المتناقضة ؟

عالم

الأمن الأوروبي

البيان الوردي والمواجهات المستمرة

بقلم احمد الجبيلي

مضت سنوات عشرون منذ بدأ الاتحاد السوفياتي يلح على ضرورة لقاء ما ، يتحقق بنتيجته الهدف الرئيسي الذي يوصله اليه اليوم مؤتمر القمة الاوروبي في هلسنكي . هذا الهدف هو انتزاع اعتراف من دول الغرب الرأسمالي بالحدود التي وضعتها نتائج الحرب العالمية الثانية لدول أوروبا الشرقية وبالنظم الاجتماعية القائمة داخل هذه الحدود .

ولا شك ان النص الذي ينتهي اليه « مؤتمر الامن والتعاون في اوروبا » ينضوي بين حلقات سلسلة طويلة من النصوص المتفاوتة ، افضت الى تكوينها جهود الدبلوماسية السوفياتية في السنوات الاخيرة . فقد كانت هذه الدبلوماسية — ومعها حليفاتها في اوروبا — حريصة على « تقنين » كل شوط تقطعه علاقاتها مع دولة او كتلة من الدول، في نص واضح ، من المعاهدتين السوفياتية — الهندية والسوفياتية — المصرية ، في مطلع السبعينات ، الى المعاهدة السوفياتية — الفرنسية ، ايام بومبيدو ، الى معاهدات المانيا الغربية مع جارتها الشرقية ومع بولونيا وتشيكوسلوفاكيا والاتحاد السوفياتي نفسه .. وهي حصيلة « السياسة الشرقية » التي رسمها فيلي براندت، يبدو، من مجرد التعداد، ان سياسة « الانفراج الدولي » تؤول ، في تقدمها ، الى محطات واضحة ، وان الحرب العالمية الثانية تقف على عتبة نهايتها .. اخيرا .

هذا لولا نكسة ذات اهمية، هي رفض البرلمان الاميركي منح الاتحاد السوفياتي وضع « الدولة ذات الامتياز » في التبادل التجاري ، اثناء الربيع الماضي .. ولولا ان محادثات جنيف حول « تحديد الاسلحة الاستراتيجية » ما تزال — رغم بعض التقدم — بعيدة عن الوصول الى نقطة فاصلة .

من الجهة الاخرى قدمت الادارة الاميركية ، منذ عهد نيكسون، دعما واضحا لخط الانفراج في أوروبا . وكان انحدار الولايات المتحدة نحو هزيمة اخيرة، في الهند الصينية — وهو الانحدار الذي بدأ مع حملة رأس السنة القمرية ، في فيتنام، عام ٦٨ ثم افضى الى مؤتمر باريس، فالى سقوط فنوم بنه وسايغون — يزيل ، ولو ببطء شديد

وكلفة باهظة، متاريس اخر جبهة كبرى مسلحة ، بقيت سنوات طويلة تنتصب في وجه الانفراج . كانت عين الامريكيين — وهم يواجهون ازمة الراسمالية المتطاولة منذ اواسط الستينات — على اسواق اوروبا الشرقية، بما فيها السوق السوفياتية . وكانوا يرمون ايضا الى ضمان الوضع القائم في اوروبا الغربية ، دون الحاجة الى استبقاء قوات عسكرية كثيفة، هناك ، بات حضورها مثارا للاشكال في وجه الحكومات المحلية ، وباتت كلفتها مثارا للجدل في الولايات المتحدة نفسها .. اما نقطة الارتكاز في هذا الموقف الامريكي ، فكانت « تحرير » المانيا الغربية من ربقة القيود التي فرضت ، منذ هزيمة النازية ، على قوتها العسكرية وعلى صلاتها بالدول الشيوعية.

الحضور الاوروبي

حين بدأ الاعداد لهذا « المؤتمر الاوروبي » قبل عامين ، كان حضور القطبين مهيمنا .. القطب السوفياتي ، وهو ليس اوروبيا كليا، والقطب الامريكي . وهو حين ينعقد اليوم — بحضور الولايات المتحدة وكندا — تظهر فيه اوروبا بالفة الاتساع : من فلاديفستوك الى سان فرنسيسكو !. لكن المؤتمر الذي كان مقدرا لتحضيره ان ينتهي في غضون شهرين او ثلاثة، لم ينعقد قبل اكتمال عامين على بداية التحضير . وكان البروز الاوروبي — داخل اللقاءات التمهيدية — هو العامل الاقوى في اطالة الاعداد .. وكان هذا البروز ايضا منعطفا في وجهة المؤتمر .

كانت اولى نتائج البروز الاوروبي المذكور ، اضافة « سلة » ثالثة الى سلتي « الامن » ، و « التعاون » اللتين كان الطرفان السوفياتي والامريكي يرغبان في تحديد مضامين ملائمة لهما ، تلك هي سلة « العلاقات الانسانية » بين جناحي اوروبا .. اي التعاون في حقول الثقافة والتربية والاعلام وتسهيل السياحة والسفر وما يتبع ذلك كله بين جناحي اوروبا . ولم يكن هذا التدخل مجردا عن الغرض . فهو وجه من وجوه اظهار « الامتياز الديمقراطي » الذي تحرص انظمة اوروبا الغربية على التلويح به دائما في وجه المعارضة الداخلية القوية التي تقودها الاحزاب الشيوعية المحلية . ثم ان هذا التعاون « الانساني » مع الكتلة الشرقية — وهو تعاون تملك اوروبا الغربية من مقاليده، بسبب تراث مشترك جزئيا ، اضعاف ما تملكه الولايات المتحدة — ليس، في المدى الطويل، بلا مردود اقتصادي . بل هو مدخل

نورد وبرجنيف : اوروبا في الوسط

■ البيان الختامي يحتشد في فقراته هموما ومناقضة موزعة على الدول والكتل الموقعة

■ اطراف المؤتمر اطلقوا على مواضيعه الكبرى اسم "السلال"، وكان املها ان لا تكون "سلال" مهملات

الى موقف اوروبي مستقل كانت رقعته — في طموح ديغول — تمتد « من الاطلنطي الى الاورال » . وقد كانت فرنسا — بلسان وزير خارجيتها السابق ميشال جوبير — سباقة، على عادتها ، الى توكيد الحرص على هذا الاستقلال : « علينا ان نستحق الامن ، لا ان نريحه في اليانصيب .. ولا ان نجعل الاذهان تنوه في التطمينات الكاذبة .. فليست اوروبا منطقة خاصة او ارض عبور تتوازن عليها قوى خارجية .. » .

هكذا طرح الاوروبيون مشكلات تتراوح بين « حرية العبادة » وتبادل الكتب !..

ولم يكن كيسنجر يرى في هذا كله سوى « سخافات » ... هذا بينما كان غروميكو يقول انه « لا يستطيع اجبار مواطنيه على قراءة ما لا يهمهم » .. ولم تنس رومانيا من جهتها ، ان تسعى الى حمل المؤتمر على تبني هموم علاقتها مع الاتحاد السوفياتي .

ولم يكن الوقت الذي استغرقه بحث هذه المشكلات بالقليل . بل ان تسريع الاعداد للمؤتمر استلزم اقتراب حدثين يقع كلاهما في العام المقبل ويبدأ الاعداد لهما منذ الان . الاول هو المؤتمر الخامس والعشرون للحزب الشيوعي السوفياتي ، وترغب القيادة السوفياتية ان تضع امامه حصيلة واقية لخط « الانفراج العالمي » ، يكون « مؤتمر الامن والتعاون » ، في شموله ، محطة هامة وانجازا بارزا فيها . اما الحدث الثاني فليس سوى انتخابات الرئاسة الامريكية .. تحت وطأة اقتراب هذين الموعدين امكن للمؤتمر ان ينجز بيانه الختامي في الحادي والعشرين من تموز (يوليو) وامكن لقمة هلسنكي ان تجمع دول اوروبا كلها — عدا البانيا — ومعها كندا والولايات المتحدة .

فحوى البيان الختامي

كيف يقدم « البيان الختامي » نتائج مؤتمر استغرق الاعداد له مئات من جلسات العمل وعشرات من اطنان الورق ؟.

يبدو النفس العام الذي ينم عنه البيان قريبا جدا من روح ميثاق الامم المتحدة، ومن نصه في معظم الاحيان ، بعد التشديد على الرغبة في توطيد الانفراج، ينتقل البيان الى توكيد عدد من المبادىء في النطاق الاوروبي ، بينها السيادة التامة لكل دولة على مختلف مصائرها والمساواة بين الدول ، كبيرة وصغيرة ، والتعهد بعدم اللجوء الى القوة في فض النزاعات وباستنفاد مختلف اساليب الحوار السلمي بين الاطراف وباستبعاد الاحتلال العسكري لاراضي دولة اخرى . هذه المبادىء تكتسب مزيدا من التحديد في اعلان ضمان الحدود القائمة بين دول اوروبا وسلامة اراضي كل منها، وفي التعهد بعدم تدخل اي من

حرب الهند الصينية : كانت عقبة تبعتها عقبات

الدول الموقعة في الشؤون الداخلية لدولة اخرى وعدم ممارسة ضغط عسكري او اقتصادي او سياسي عليها . تلي ذلك تعهدات ذات صفة « ايجابية » باحترام حقوق الاقليات ورعاية حقوق الانسان والحريات الاساسية . ثم يشدد البيان على ضرورة تدعيم التعاون بين الدول الموقعة موزعا مسؤولية ذلك على مختلف المؤسسات والمنظمات وعلى الاشخاص . وينتهي هذا القسم الى اعلان العزم على تنفيذ التزامات الاطراف طبقا للقانون الدولي وعلى السير قدما في نزع السلاح وفي ابطال اخطار المجابهات المسلحة . ثم تتعهد الدول الموقعة اخيرا بالاعلان المسبق عما تنوي القيام به من مناورات عسكرية ، اذا كانت هذه الاخيرة تجري غير بعيد عن حدود دولة اخرى من بينها .

ويخص البيان مسالة التعاون الاقتصادي بين الدول المشاركة بقسم على حدة . فيشدد على تعميم صيغة « الدولة ذات الامتياز » وبالتالي على ازالة العوائق من امام التبادل التجاري وعلى تناقل المعلومات والاحصاءات الاقتصادية المفصلة والتشريعات التجارية والاقتصادية عامة ، وعلى التعاضد في الانماء الصناعي (وخاصة في ميادين الطاقة والمواد الاولية والنقل) وعلى التعاون في حث التقدم العلمي والتقني وتعميم نتائجه وفي مواجهة مشكلات البيئة .

ولا ينسى البيان هموم الجوار المتوسطي للعديد من الدول المشتركة في المؤتمر ، فيسجل الموقف الايجابي الذي وقفته من المؤتمر دول متوسطية غير مشاركة فيه . ويعلن العزم على توطيد العلاقات معها وعلى المساهمة في بناء اقتصاد يتنوع لسائر دول المتوسط تلك، ضمن اطر خطط التنمية الخاصة بكل منها . ثم يخلص الى تاكيد الرغبة في تخفيض القوى ومعالجة اسباب التوتر داخل حوض المتوسط .

وتستغرق مسالة « التعاون في المجالات الانسانية » ، وهي المسالة التي الح عليها الاوروبيون ، قسما واسعا من البيان . فنجد فيه جردة شاملة لمسائل مطروحة على هذا الصعيد من تسهيل الزيارات العائلية

وجمع الشمل الى تشجيع التزاوج بين مواطنين من دول مختلفة الى تيسير تنقل مواطني كل دولة موقعة على اراضي الدول الاخرى « مع المراعاة الواجبة لاعتبارات الامن » ، الى انماء السياحة ولقاءات الشباب الى تدعيم الصلات الاعلامية وتسهيل مهمة الصحفيين الاجانب في كل قطر الى توسيع تبادل الصحف والكتب والافلام والاشرطة المسجلة ، الخ .. ولا ينسى البيان ، في هذا الباب ، اعلان احترام الاطراف المشاركة لتميز ثقافات المناطق داخل كل دولة ولثقافات الاقليات القومية ..

اما خاتمة البيان فهي عقد للنية على تفحص دوري لنتائج الجهد المشترك المبذول في الاتجاهات المحددة انفا، فسيعود وزراء خارجية البلدان الموقعة على البيان الى الالتقاء في بلغراد بعد عامين وسيعدون للقاء قمة اخر يجري فيه احصاء النتائج ودفع عجلة التعاون — مبدئيا — الى الامام .

درب الجحيم مفروش بالنوايا الطيبة

ليس هذا البيان معاهدة ولا هو تاسيس لحلف جديد . بل هو « اعلان نوايا » لا يملك اي من بنوده صفة الالزام . ولعل غياب هذه الصفة هو ما يجعل الشطر الشمالي من الكرة الارضية (وهو شطر وقعت البيان جميع دوله تقريبا) يبدو، في البيان ، وكانه حوض من الزهر . لكن نظرة قريبة الى واقع العلاقات بين اطراف المؤتمر الرئيسية ، ما تلبث ان تعدل كثيرا في هذا الانطباع . وما تبرزه النظرة المذكورة ، دون صعوبة ، اولا، هو ان البيان يحشد في فقراته هموما متناقضة، موزعة بالقسطاس على الدول ، او على الكتل الموقعة . فبينما يعبر هذا الطرف، في بند معين ، عن مصلحة جوهرية من مصالحه ، تجد ان طرفا اخر لا يتبنى البند نفسه ، الا وهو يرى لكن الاعلان لن يجعل الحكومة الامريكية قادرة على تعميم الاختلاط بين السود والبيض في سيارات النقل المدرسي . يعلن النظام الاسباني التزامه بالحريات الاساسية ، لكن ذلك لن يمنع شرطة فرانكو من اطلاق النار على عمال استوريا او بن احتلال جامعة برشلونة . ترى رومانيا في تشديد البيان على السيادة الكاملة لدول المؤتمر وعلى استبعاد تدخلها العسكري في شؤون بعضها بعضا ، نقضا لمبدا « السيادة المحدودة » الذي اعلنه برجنيف بعد ازاحة دوبتشيك سنة ٦٨ . لكن الاتحاد السوفياتي سيظل يشدد على « الوحدة الايديولوجية لدول المعسكر الاشتراكي » وسيظل يجابه اية حركة يرى فيها خطرا جادا على هذه الوحدة . ثم ان الصحافة البولونية مثلا لم تنشر نصا عن « العلاقات الانسانية » يشبه شبها قريبا ما ورد في بيان المؤتمر عن هذا الموضوع . وكان النص المذكور جزءا من بيان مشترك صدر على اثر زيارة قام بها الرئيس الفرنسي لفرصوفيا قبل شهر واحد ، الخ ، الخ ..

ثم ان انعقاد هذا المؤتمر لا يكفي لاخفاء الغيوم المحومة على التعاون الاقتصادي هو الاخر ، فما زالت في الذهن صورة الصراع الضروس الذي نشب بين الولايات المتحدة وفرنسا على « صفقة القرن » (تجديد الطيران الحربي في عدد من الاقطار الاطلسية) . وقد لجات الولايات المتحدة الى اساليب لكسب هذه الصفقة لم يكن اقلها رشوة واحد من قادة الطيران الفرنسي . اما الصراع بين « الكونكورد » طائرة النقل المدني البريطانية — الفرنسية ومنافستها الامريكية فهو، الى الان، مستمر .. ثم ان رحلة ابولو — سويوز قد تمت . لكن الاتحاد السوفياتي الغى — قبل اشهر — معاهدة التبادل التجاري المعقودة بينه وبين الولايات المتحدة عام ١٩٧٢ . ورفض الكونغرس الامريكي منح الطرف السوفياتي — كما اشرنا — وضع « الدولة ذات الامتياز » .

على جبهة اخرى، تم حسم الصراع في الهند الصينية . لكن اسباب المجابهة بين الكتلتين العالميتين ما لبثت ان نبتت — او انها استمرت — في مواقع اخرى عديدة من الكرة .. في البرتغال، في انغولا ، في الهند، في تركيا ، في الارض العربية ، الخ .. تدور الان رحى صراعات لا يسع احدا ان ينكر بعدها العالمي . لذا لم يكن غريبا ان يوجه كيسنجر « تحذيرا » الى الاتحاد السوفياتي ، ناسبا اليه التدخل في الازمة البرتغالية .. وذلك قبل انعقاد « مؤتمر الامن والتعاون في اوروبا » بخمسة ايام فقط !.

حصيلة عشرين سنة

اذا كان صحيحا ان هذا المؤتمر كان مطلبا سوفياتيا منذ عشرين عاما، فان الحق ايضا هو ان عقده يشير الى اهمية التطور الذي شهدته العلاقات الدولية في هذه الاعوام العشرين . بات الانقسام الاوروبي ، على صعيد النظم الاجتماعية ، موضع اعتراف متبادل . وباتت المجابهة العسكرية، بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، في هذا الجزء او ذاك من اوروبا ، امرا يصر الطرفان على استبعاده. واخذت الوحدة الاوروبية الغربية تتحول الى امر واقع، عبر ازمات متكررة، نجتاز احداها اليوم .

وبلغ التعاون الاقتصادي بين الكتل العالمية حجما لم يكن يجرد تصوره متيسرا قبل عشرين سنة . وبات للصراع الدولي عامة بعض القواعد المتسمة بشيء من الثبات. لكن امتحانات الحاضر والمستقبل ما تزال بالغة العسر. ولعل هذا ما يفسر الاستقبال المتجهم الذي يلقاه المؤتمر — بعد الجهود الهائلة لانجاحه — في الصحافتين السوفياتية والامريكية . وحين اطلقت اطراف المؤتمر على مواضيعه الكبرى اسم « السلال » كان املها — وهو يملك بعض الصلابة ،